تمهيد

لا يتعلق هذا الكتاب بقصة غرامية مع ثقافة الهند وتولّه بآثارها القديمة. فقد قرأت كثيراً من المدائح التي دبجها الأجانب بالهند، وليست لدي نية بإضافة واحدة أخرى إلى اللائحة المتخمة. بل يتناول التغيير الاقتصادي - السياسي والاجتماعي الذي أصاب بلداً سوف يؤثر مستقبله في باقي بلدان العالم على نحو متزايد. حين كنت مراسلاً أكتب التقارير عن الهند إلى صحيفة فايننشال تايمز، التزمت عادة الأسلوب الموضوعي والحيادي الذي يتبعه الصحفيون. لكن الكتاب أمر مختلف، وكثيراً ما يلجأ إلى ضمير المتكلم في الفصول اللاحقة. بعض ما احتوته الصفحات من طبيعة انتقادية، تشتد نبرتها بين الحين والآخر. فمن الصعب مشاهدة آليات عمل الأنظمة السياسية والاقتصادية والقانونية في الهند وتسجيلها دون شعور بالغضب والحنق أحياناً بسبب إهدار الفرص الحياتية لمئات الملايين من الهنود الذين يعيشون في فقر مدقع حتى الآن. ولا ريب في أن فرصهم تتحسن -وإن بشكل بطيء- لكنها تتحسن مع ذلك. ويصعب أيضاً مغالبة الشعور بالإحباط وخيبة الأمل من الأعداد الكبيرة من الأجانب والهنود الذين يرغبون حتى الآن برؤية الهند من منظور روحاني صرف. لقد كتب الكثير عن الاستثنائية الأمريكية والفرنسية (لا تقدس أي منهما الفقر، مثلما يجب أن نضيف). ويمكن كتابة الكثير أيضاً عن التنوع الهندي.

لكن لولا محبتي العميقة للهند، وافتتاني بها، لما كتبت هذا المؤلف. فعلى مدى السنين علمتني الهند -بطرق مفاجئة- عن البشر عموماً بقدر ما علمتني عن نفسي. ومع أن الهند تبدو غامضة بين الحين والآخر، إلا أنها فتحت على الدوام أبوابها لي ولغيري من الغرباء الفضوليين. ومع استثناءات نادرة جداً، أبدى الهنود طيبة ولطفاً وانفتاحاً وكرماً وتسامحاً دون تحفظ تجاه استجواباتي، أنا الدخيل الأجنبي. ودون قصد منها، علمتني الهند أيضاً مدى ابتعادنا في الغرب -وخصوصاً في بريطانية- عن كرم الضيافة. وآمل أن يدرك القارئ عدم وجود تناقض بين النقد والود. بهذه الطريقة سوف يتفق مع توقع الكتاب بنهوض الهند لتلعب دوراً عالمياً أكثر أهمية في العقود القليلة الأولى من القرن الحادي والعشرين.

طوال خمس سنوات من السفر والتجوال والترحال في الهند، أراقب الأحداث وأقابل الناس -أربع منها قضيتها مديراً لمكتب صحيفة فايننشال تايمز، وواحدة لتأليف هذه الكتاب- لا أستطع أن أفكر إلا بحفنة قليلة من المناسبات التي منعت فيها من لقاء شخص أردت لقاءه أو الوصول إلى معلومات سعيت وراءها. ونظراً لأنني قابلت مئات الهنود - وكررت لقاء بعضهم أكثر من مرة- فإن تعداد أسمائهم يتطلب فصلاً كاملاً. لذلك سوف أكتفي بذكر عدد قليل منهم مدوا لي باستمرار يد المساعدة، وكثير من هؤلاء أصبحوا من أصدقائي المقربين. ومع بعض الاستثناءات القليلة، تعمدت إغفال أسماء السياسيين ورجال الأعمال، لأن مقابلتهم للصحفيين تمثل جزءاً طبيعياً من حياتهم المهنية.

أود أن أعبر عن شكري العميق إلى: شانكار أشاريا، وسوامي أغنيفيش، ومونتيك وإيشر أهلوايا، وماني شانكار أيار، وإم. جي. أكبر، وسهيل أكبر (وأبويه الرائعين في مدينة الله أباد)، وأنيل أمباني، وكانتي باجابي، وسانجايا بارو، وسريج بالا، وكيران باتي، وأسلم خان، وجاغديش باغواتي، وأودي باسكار، وراهول بيدي، وفرحان بخاري، ومايكل وجيني كارتر، ورام تشاندرا، وفيكرام تشاندرا، وفيجاي تشوتياوالي، وأشوك تشوغول، وستيفن بي. كوهين، وتارون داس، ونيخيل دي، وجين دريز، وغوردون دوغويد، وفيرغيز جورج، وساغاريكا غوش، وأومكار غوسوامي، وديبانكار ومالا غوبتا، وشيكار غوبتا، وسوابان داس غوبتا، وديفيد هوسيغو، وتوني جيسوداسان، وبريم شانكار جها، وفيجاي كيلكار، وسونيل كيلناني، وسوديندرا كولكارني، وحنيف لاكداوالا، ورام ماداف، وموني مالهوترا، وكمال إم.، وهارش ماندار، وأشوك ميهتا، وبراتاب بانو ميثا، وفينود ميهتا، ومورلي مينون، وكوزيم ميرتشانت، ومالافيكا سانغفي، وأنجالي مودي، وراجا موهان، وجايابراكاش ناريان، وسونيتا ناريان، وكيشان نيغي، ونانداني نيليكاني، وتي. إن. نينان، وأوديت راج، وإن. ومريم رام، وماهيش رانغاراجان، وأرونا روي، ورامان روي، وراجديب ساردیساي، ونافيتيج سارنا، وتيسي شافر، وسهيل سيث، وجيوتيرمايا شارما، وأجاي وسونيا شوكلا، وإن. كي. سينغ، ومالا وتيجبير سينغ، وأرون سينغ، وأشلي تيليس، وكاران ثابار، وأشوتوش فارشني، وجورج فيرغيس.

وأريد أن أتوجه بالشكر أيضاً إلى هؤلاء الذين قرؤوا المخطوط كاملاً وصححوا الأخطاء المتعلقة بالحقائق والأحكام وقواعد اللغة، وهم: مايكل آرثر، وسومان بيري، وراماتشاندرا غوبتا، وأندرو ديفيز، وجاكي شوري، وكريشنا غوها. طوال عملية إجراء الأبحاث وتأليف الكتاب، كانت مساعدة وكيلتي في إيه. بي وات، ناتاشا فيرويذر، وخبرتها ومعرفتها وتشجيعها ضرورية دوماً ولا يمكن الاستغناء عنها. وكان من دواعي سروري (ومن المحفزات الفكرية) أيضاً العمل مع تيم وايتنغ وستيف غويس، المحررين في ليتل براون في لندن، والمحرر كريس بوبولو في دبل داي في نيويورك. وأود أن أعبر عن امتناني إلى صحيفة فايننشال تايمز، التي جسدت ربَّ عمل مثالياً للمراسلين الأجانب، وذلك بغض النظر عن الإجازة الممنوحة مدة سنة لإجراء البحوث وتأليف هذا الكتاب. ولا أعتقد أن صحيفة أخرى تتيح لمراسليها مثل هذه الاستقلالية والحرية في متابعة اهتماماتهم. والمساحة التي وفرتها لقصص الهند الجدية والمهمة مازالت تميزها عن معظم المطبوعات الأخرى. لم تحاول الصحيفة، ولا مرة واحدة، أن تفرض آراء أو أفكاراً على ما أكتب. ولا ينطبق هذا الوصف إلا على حفنة قليلة من الصحف.

في الختام أعبر عن شكري وتقديري لأبارنا وبراهلاد باسو، والدي زوجتي، اللذين لم يعادل تشجيعهما لاهتمامي بالهند إلا ما تمتعا به من رؤى ثاقبة وتجربة غنية كانا على استعداد دوماً لتقاسمها معي. أبارنا مؤرخة وعملت أستاذة في جامعة دلهي سنين طويلة. وبراهلاد، كان -ومازال- من كبار الموظفين في نيودلهي. ولا يحظى كثير من المراسلين الأجانب (ولا الأصهار!) بهذا النوع من العون والمساعدة. أود أن أشكر أيضاً والدي، روز وريتشارد، اللذين تحملا المهمة الأسطورية المتمثلة في قراءة كل ما كتبته، ومنه -مثلما اكتشفت لاحقاً- مذاكرتي التي وضعت عليها عبارة «لا تقرأ!» وكتبتها في سنوات المراهقة. أما دعمهما اللامحدود فمثل أحد الأسباب وراء فعل ما أردت فعله في الحياة. أهدي هذا الكتاب إليهما، وأهديه أيضاً إلى زوجتي بريا، التي لم ينفذ صبرها على سلوكي الغريب أثناء تأليف هذا الكتاب سوى مرة أو اثنتين، لكن حبها ظل ثابتاً على الدوام. ومع أنها لا تتفق مع آرائي جميعها، فإن مناقشتها معها ساعدتني على توضيحها وإغنائها. بريا هي الضحية والمذنبة أحياناً، وهي سبب وراء تأليف الكتاب.

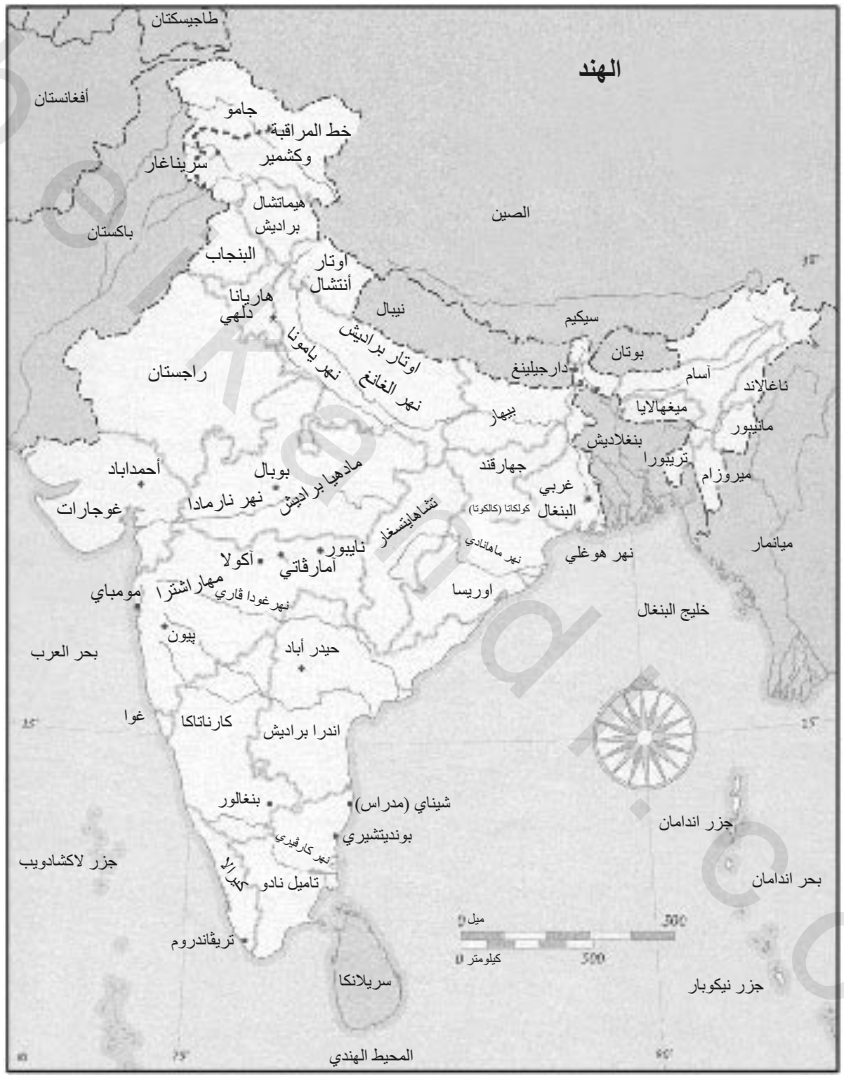

obeikandi.com